الترجمة كوسيلة لإحلال الحوار بين الثقافات

مجلة الاجتهاد و المجتمع
العدد الأول، يونيو 2022

عبد الغني محتال
دكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله

ملخص:

يسعى هذا المقال إلى إبراز دور الترجمة في التفاعل الثقافي. وهي إشكالية حاولت من خلال الخوض فيها إثارة جانب مهم يمكن اختزاله على الشكل التالي: كيف تغدو الترجمة وسيلة لإحلال الحوار بين الثقافات؟ وبأي معنى تضطلع الترجمة بدورها كاملا لخلق مثاقفة متوازنة تنبني على الاغتناء المتبادل لا على الإلغاء والتفاضل؟ وما هي مجالات المثاقفة بالترجمة؟ وكيف تصبح الترجمة أداة للانفتاح على الآخر من منطلق الإيمان بالتعدد والاختلاف؟ وما هو السبيل إلى الحفاظ على الهوية الثقافية مع الانفتاح في الآن نفسه على مختلف الثقافات والتفاعل معها؟

الكلمات المفاتيح: الترجمة. المثاقفة. التفاعل الثقافي. حوار الثقافات. الأنا والغير.

TRANSLATION AS A MEAN OF INTERCULTURAL DIALOGUE

Abdelghani Mahtal
PhD in Arts and Humanities
Sidi Mohamed ben Abdallah University

Abstract :

This article seeks to highligh the role of translation in culutural interaction. It is a problematic that i tried, by going into it, to raise an important aspect that can be reduced to the following : How does translation become a means to establish dialogue between cultures ? In what way does translation play its full role to create a balanced interculturalism based on mutual enrichment and not on cancellation and differentiation ? What areas interculturalism does translation span ? How does translation become a tool for opening up to the other based on belief in pluralism and difference ? What is the way to preserve cultural identity while at the same time being open to and interacting with different cultures ?

Keywords : translation – interculturalism - culutural interaction - dialogue between cultures – ego and alterego.

مقدمة:

إذا كان الاختلاف ضرورة من ضرورات الحياة، فإن من حق كل واحد على الآخر أن يحاوره ويستمع إليه... فحق الاختلاف هو الذي يسمح بواجب الحوار قصد تبيان الحقائق، وتبديد الخلافات وتوضيح الإشكالات التي تقف حجر عثرة أمام التفاهم المشترك والاحترام المتبادل".[1] وكما يقول الدكتور طه عبد الرحمن: "... فإذا أنزل الخلاف منزلة الداء الذي يفرق، فإن الحوار ينزل منزلة الدواء الذي يشفي منه"[2]. لذلك حث الله عباده على السعي نحو التعارف والتقارب وبذل الجهود في سبيل الوصول إلى نقاط اللقاء. فالتعارف البشري حاجة حيوية وثقافية وحضارية، خاصة في ظل التغييرات السريعة التي يشهدها العالم المعاصر في جل المجالات الحيوية المتجلية في تراكم المعلومات وتدفقها في صورها المكتوبة والمرئية، من كل الجهات وبشتى الأساليب التكنولوجية المتطورة والمعقدة، لذلك تتطلب هذه الحاجة إيجاد وسيلة فعالة للتخاطب والتفاهم مع أفراد الشعوب الناطقة بلغات مختلفة، وتيسر تلاقح الثقافات وتفاعلها.

[1] - حسن عزوزي، الإسلام والحضارة الغربية المعاصرة، ط.1، 2003، أنفوبرانت، فاس، المغرب، ص: 53.

[2] - طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع.36، يناير 2002، ص: 28.

هذه الوسيلة توفرها وبامتياز الترجمة الجادة المنظمة والمدعومة، حيث إنها شكلت على مر العصور والأزمان، باعتبارها نشاطا إنسانيا، جسرا للتواصل والتفاعل والتلاقح بين اللغات، ورحلة في الثقافات والحضارات المغايرة، وسعيا نحو ارتياد آفاق جديدة وأسئلة وجود وهويات متنوعة ومختلفة... عن طريق نقل العلوم والاختراعات الحديثة وترجمة النصوص الأدبية وغير الأدبية في مختلف أجناسها وأنواعها النصية من لغة إلى أخرى.

لذلك، ارتأيت في هذا المقام أن أربط الترجمة بإشكالية المثاقفة. وهي إشكالية أرمي من خلال الخوض فيها إثارة جانب مهم يمكن اختزاله على الشكل التالي: كيف تغدو الترجمة وسيلة لإحلال الحوار بين الثقافات؟ وبأي معنى تضطلع الترجمة بدورها كاملا لخلق مثاقفة متوازنة تنبني على الاغتناء المتبادل لا على الإلغاء والتفاضل؟ وما هي مجالات المثاقفة بالترجمة؟ وكيف تصبح الترجمة أداة للانفتاح على الآخر من منطلق الإيمان بالتعدد والاختلاف؟ وما هو السبيل إلى الحفاظ على الهوية الثقافية مع الانفتاح في الآن نفسه على مختلف الثقافات والتفاعل معها؟

علاقة الترجمة بالمثاقفة:

أصبح التعبير القائل:" العالم قرية صغيرة " من الأدبيات التي أنتجتها عولمة الإعلام أمام التطور المذهل لوسائل الاتصال المختلفة التي صارت في متناول الجميع، فقربت بين الثقافات ومزجت بعضها ببعض، حتى كادت تصبح ثقافة عالمية واحدة. فانتشرت العقائد والفنون والآداب في كل مكان، وأصبح الفرد المثقف يعرف كل صغيرة وكبيرة عن عقائد الآخرين إلى جانب عقيدته، ومطلعا على الحركات الفنية قديمها وحديثها، وآخذا بنصيب حسن من العلوم، ومكونا فكرة لا بأس بها عن الآداب العالمية إلى جانب إلمامه بأدب أمته[3]. بهذا التعبير يمكن ملامسة مستويات الاندماج والانفتاح التي أصبحت تسم كل المجتمعات بما فيها الانفتاح الثقافي. وبما أن الثقافة كل معقد ذو جوانب متعددة، فإن سبيل انتقالها بين الأمم يختلف من جانب إلى آخر. فبعض مكوناتها لا يعيقه عائق بسبب لغته العالمية التي تفهمها كل الشعوب، كالموسيقى والرسم والتمثيل الإيمائي... وبعضها الآخر، يتعذر انخراطها في نسق تفاعلي بين ثقافتين مختلفتين، بحكم اختلاف - لغة الانطلاق - المنتجة للفن والعادات والأبحاث العلمية والفكرية والفلسفية... مما يتطلب - وسيطا - يساهم في خلق جسور التفاعل والتقارب بين الثقافات ترسيخا لمبدأ المثاقفة[4]، في جو من الحرية والمبادرة الذاتية التي تعبر عن رغبة الشعوب في التقارب والحوار والمثاقفة، وإلا تحولت

[3] - تيسير شيخ الأرض، "الترجمة بين الفعل والانفعال الثقافي"، مجلة الوحدة، ع. 61-62، أكتوبر/نونبر 1989، ص10.

[4] - عبد الرحمن التمارة، "من نقطة التحويل إلى دائرة المثاقفة"، مجلة فكر ونقد، ع86، 2007، ص 53.

(المثاقفة) إلى استيلاب فكري، وغزو ثقافي مفروض، يتضمن في طياته الرغبة في محو الآخر وإلحاقه وفرض التبعية عليه، ومعاملته بنظرة فوقية عدوانية ومتغطرسة.

بناء على ذلك، تكون المثاقفة خاضعة لمنطقي الحرية والحتمية على السواء، لتبرز مع هذا الخضوع أنواع مختلفة من المثاقفة، ناتجة أساسا عن مستويات الحضارات المتفاعلة فيما بينها. ويمكن التمييز في هذا السياق بين أنماط ثلاثة:

1- المثاقفة كغزو ثقافي، حيث تخضع الثقافة لحتمية ثقافة أخرى، من غير أن تكون على مستوى الفعل الثقافي، فتكون المثاقفة بالنسبة إليها غزوا ثقافيا، كالغزو الثقافي الذي مارسته الدول الاستعمارية على ثقافات الشعوب المستعمَرة، كما هو حال شعوب إفريقيا، كشعب الجزائر أمام الاستعمار الفرنسي، وكذلك محاولة تتريك العرب التي قامت بها الدولة العثمانية[5]. وهذا ما أكده الأنثروبولوجي جيرار لكلرك (J. Lklark) في مؤلفه الأنثروبولوجيا والاستعمار قائلا: "يمكن استعمال التثاقف للإشارة إلى الأنماط التي يتم بموجبها قبول مظهر ثقافي معين في ثقافة أخرى، بحيث يتلاءم ويتكيف معها، مما يفترض مساواة بين الثقافة التي تعطي وتلك التي تتقبل، والتكيف هو السيرورة التي تتحول بموجبها عناصر الثقافة المستعمرة والمسيطرة على نحو حالة تتلاءم مع شكل الثقافة المسيطرة."[6]

2- المثاقفة كفعل ثقافي، متفاعل مع حتمية ثقافية خلفها وراءه فعل ثقافي سابق، خلا الشعبُ الذي أبدعه الساحةَ لشعب آخر بدلا منه. كما هو الشأن بالنسبة إلى الشعوب الأوروبية التي ورثت الثقافة اليونانية، وحولتها إلى فعل ثقافي خاص بها معا، ويتخذ لونا قوميا لدى كل منها. كذلك الأمر نفسه بالنسبة إلى العرب الفاتحين، الذين وجدوا ثقافات يونانية وفارسية وهندية في البلاد المجاورة، فتأثروا بحتميتها، وما لبثوا أن حولوها إلى فعل ثقافي خاص بهم، شجعهم على الإبداع والابتكار دون مسح أو مسخ لفعلهم الثقافي الأصلي. وهو أمر كان قد أشار إليه الدكتور شحادة الخوري بقوله: " لم يدمر العرب الفاتحون حضارة ولا أبادوا ثقافة، بل حفظوا كل خير ومفيد في حضارات من سبقتهم، واقتبسوا ثقافتهم وتمثلوها خالصة من الشوائب فصارت جزء من ثقافتهم وبعدا من أبعادها، ثم ما لبثوا أن أغنوا الثقافة الإنسانية بما كشفوا عنه وما أبدعوا فيه، فأعطوا أضعافا ما أخذوا وصبغوا

[5] - تيسير شيخ الأرض، "الترجمة بين الفعل والانفعال الثقافي"، مجلة الوحدة، ع. 61-62، أكتوبر/نونبر 1989، ص 12.

[6] - جيرار لكلرك، الأنثروبولوجيا والاستعمار، تر. جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 1990، ص 87.

كل نوع من أنواع المعرفة بلون عبقريتهم الفذة."[7]

3- المثاقفة كفعل ثقافي تواصلي مع فعل ثقافي آخر معاصر له، يتطلعان معا إلى تبادل أسباب الحياة والاستمرار، كما يحدث الآن بين الشعوب الأوروبية.[8]

وتبقى المثاقفة إذن، ببعدها الإيجابي كفعل ثقافي تواصلي وتفاعلي، وبعدها السلبي كغزو فكري، ظاهرة صحية إيجابية عرفتها المجتمعات البشرية عبر تاريخها الطويل، وظلت وسيلة فعالة من وسائل التقارب وتبادل المعارف والخبرات وعاملا قويا من عوامل تطور وازدهار الحضارات الإنسانية.

ولعل خير وسيط لتدعيم آليات التقارب الثقافي هو المترجم. فالعلاقات الإنسانية كما هو معلوم، إما أن يسودها التفاهم ويعمها السلام، أو تتأزم بسبب اختلاف المصالح والمطامح ونزعة الناس العدوانية، وفي كلتا الحالتين تقوم الترجمة بدور التقريب بينها. ففي حالة السلم تسعى الجماعات الإنسانية إلى معرفة الغير ومقارنته بالذات، والإفادة مما لديه من معارف وعلوم وتقنيات لمواكبة التقدم الحضاري. وفي الحالة الثانية، حالة الصراع والنزاع، تتصاعد الحاجة إلى الحوار بين المتنازعين الذين هم نتاج سياقات ثقافية واجتماعية وسياسية مختلفة[9]، فتغدو الترجمة في الحالتين معا أداة لتجسير الهوة بين هذه العلاقات، وتضييق الفجوة بين مختلف الثقافات والحضارات.

إن هذا من شأنه أن يدفعنا إلى التساؤل عن علاقة الترجمة بالمثاقفة، وعن الكيفية التي تساهم بها الترجمة في تنميتها، وعن مجالات المثاقفة بالترجمة، وكذلك الإشكالات التي تضعها في ظل المثاقفة، خاصة ما يتعلق بسؤال الهوية.

تأسيسا على أن "الترجمة وسيلة لوعي الفارق بين التثاقف (الذي يعني الإنصات المتبادل بين الثقافات والاعتراف باختلافها) والإلغاء الثقافي[10]، يتبين أن الترجمة على علاقة وطيدة بالمثاقفة، فكلتاهما تبحثان وتسعيان نحو ارتياد آفاق مغايرة لأشكال الثقافة المختلفة، في ظل التعايش الحضاري والتنوع الثقافي. كما تختزلان واقع تعايش الحضارات المختلفة عند لحظة الإبداع التي يتمخض عنها تجدد الحضارات ونماؤها[11]. لذلك ارتبطت الترجمة بالمثاقفة من زوايا عدة:

[7] - شحادة الخوري، الترجمة قديما وحديثا، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، الطبعة الأولى، 1986، ص 29.

[8] - تيسير شيخ الأرض، "الترجمة بين الفعل والانفعال الثقافي"، ص 12-13.

[9] - علي القاسمي، "أثر الترجمة في معرفة الآخر وإدراك الذات"، مجلة ترجميات، س1، ع. 2، ماي/يوليوز 2006، ص 86-87.

[10] - رشيد برهون، "الترجمة ورهانات العولمة والمثاقفة"، عالم الفكر، ع.1، يوليوز-شتنبر2002، ص 171.

[11] - المصطفى عمراني، "الترجمة بين المثاقفة والعولمة"، مجلة فكر ونقد، ع 95، فبراير 2008، ص 26.

1- الزاوية التواصلية: اضطلعت الترجمة على مر العصور بدور طليعي في التبادل الثقافي بين الشعوب ونقل المعرفة الإنسانية من أمة إلى أخرى، بوصفها أداة اتصال بين الجماعات الناطقة بلغات مختلفة، وقناة تواصل تمر عبرها الأفكار والمعتقدات والابتكارات والاختراعات[12]، فهي على حد قول الدكتور عبد الرحيم حزل: فعل يخضع لمتطلبات المعنى، وشرائط التبليغ، وتواضعات التواصل[13]. فالترجمة بهذا المعنى تغدو أداة تعزز وتدعم فعل التواصل الثقافي الذي يعد أحد المرتكزات الأساسية لفعل المثاقفة، مدا لجسور التفاعل بين الثقافات المختلفة.

ب-الزاوية المعرفية: إن الإنسان على اختلاف ألسنته تواق إلى المثاقفة والتواصل مع غيره، متشوق إلى آفاق واسعة من المعرفة، وكانت الترجمة هي أبرز وسيط يرضي فضوله العلمي والمعرفي، وإحدى الوسائل التي استند إليها لمواكبة الحركة الفكرية والثقافية في العالم، وصياغة منظومته المعرفية وتطوير ثقافته الذاتية. فعن طريق الترجمة يتعرف الناس إلى أعراف غيرهم، وتقاليدهم وأفكارهم وآدابهم وسلوكهم وتاريخهم، بل حتى تضاريسهم وجغرافيتهم[14]. لذلك، كانت ترجمة أعمال بعض المفكرين العالميين ذات أهمية كبيرة في التعريف بالآخر، فترجمة أعمال الأدباء الروس، أمثال تولستوي (Lev Nikolaïevitch Tolstoï) ودوستويفسكي (Fiodor Mikhaïlovitch Dostoïevsk) وغوركي(Maxime Gorki)، من شأنها تعريف العالم بهذا الشعب، بطباعه وأنماط معيشه وأرضه... كذلك الأمر بالنسبة إلى الأدبين الفرنسي والأنجليزي، فالكثيرون يعلمون عن مدينتي الضباب والأنوار، من خلال قصة مدينتين للأديب تشارلز ديكنز(Charles Dickens) أكثر مما يعرفون عن مدنهم، وترجمة أعمال نجيب محفوظ قادرة هي الأخرى على تقديم صورة عن مصر، مثلما هو الشأن مع أعمال محمد شكري التي تعرف الغير على المجتمع المغربي. من هنا، تبدو العلاقة بين الترجمة والمثاقفة متجهة صوب تشييد زاوية معرفية غايتها إغناء الثقافات بناء على جدلية الأخذ والعطاء.[15]

ج-الزاوية الإيديولوجية: إذا كانت المثاقفة في أحد مظاهرها غزوا ثقافيا، فإن الترجمة تتحول إلى فعل يساند هذا الغزو، نظرا لخضوعها لحتمية الثقافة المدعمة بسلطة القوة الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية. وبذلك، فالترجمة تدعم الإيديولوجيا التي

[12] - علي القاسمي، الترجمة وأدواتها: دراسات في النظرية والتصنيف، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط.1، 2009، ص 67.
[13] - عبد الرحيم حزل، "أسئلة الترجمة"، سلسلة شراع، ع 55، ماي 1999، ص 19.
[14] - عبد الكريم ناصيف، الترجمة: أهميتها ودورها في تطوير الأجناس الأدبية، مجلة الوحدة، ع62/61، أكتوبر/نونبر1989، ص 59-61.
[15] - عبد الرحمن التمارة، "من نقطة التحويل إلى دائرة المثاقفة"، ص 54 -55.

يراد لها أن تنهض بديلا عن الإيديولوجيا العاجزة عن إنتاج وعي مجتمعي قادر على مساءلة الوضع القائم. ولعل هذا ما جعل كفة الترجمة ترجح لصالح تيار أدبي أو منهج نقدي في حقبة معينة. وقد دلت عدة أحداث ترجمية، يمثل لها بالمؤلفات الوجودية والماركسية المترجمة في فترة الخمسينات التي غزت الحقل الفكري العربي، وتحكمت به بقوة حتى باتت تصوغ له إشكالياته وتعين له لغة تعبيره، و"تتضمن، بالفعل، الآثار الدالة على موقف الذات المترجمة من غيرية النص المترجم."[16] خاصة، عندما ينحو فيها المترجم منحى التلخيص غير الأمين وتشذيب النتوءات والترخُّص في الخصوصيات.[17]

د-الزاوية الرمزية: تكتسي العلاقة بين الترجمة والمثاقفة بعدا رمزيا، لأنها تتجاوز الدعم الثقافي المتبادل من خلال التعريف بالخصوصيات المميزة لكل ثقافة، إلى الحرص على عدم فقدان الهوية.[18]

من هنا، يمكن القول إن الترجمة والمثاقفة وجهان لعملة واحدة، بل الترجمة رديفة المثاقفة، كما حددها الباحث الاجتماعي الفرنسي ميشال دوكستر(Michel De Coster)، والتي تعني "مجموع التفاعلات التي تحدث نتيجة شكل من أشكال الاتصال بين الثقافات المختلفة كالتأثير والتأثر والاستيراد والحوار والرفض والتمثل وغير ذلك مما يؤدي إلى ظهور عناصر جديدة في طريقة التفكير وأسلوب معالجة القضايا وتحليل الإشكاليات، مما يعني أن التركيبة الثقافية والمفاهيمية لا يمكن أن تبقى أو تعود بحال من الأحوال إلى ما كانت عليه قبل هذه العملية".[19]

ومن خلال هذا التعريف، يتضح أن فعل المثاقفة ينبني على عناصر محورية: الاتصال والتفاعل والتغيير في الأنماط الثقافية والمواكبة الثقافية... هذه العناصر البانية للمثاقفة هي نفسها المتحكمة في فعل الترجمة. لهذا، فالترجمة تساهم في تنمية المثاقفة عبر عدة قنوات تقنية وإبستمولوجية يمكن تحديد بعضها فيما يلي:[20]

1. قناة التواصل: لن تكون الترجمة منهجية، إلا إذا ما كانت عملية تواصلية وناقلة لرسائل لغة الانطلاق إلى لغة الوصول. فالتواصل هو المؤسس لضرورتها، وهو الهدف الأخير لكل ترجمة. لذلك، يعمل كل مترجم بكل ما في وسعه، على إيصال الأعمال الإبداعية إلى الجمهور، الذي

[16] - رشيد برهون، "الترجمة ورهانات العولمة والمثاقفة"، ص 175.
[17] - عبد الرحيم حزل، "الترجمة والأدلوجة في حوار/صراع المشرق والمغرب"، ترجميات، ع.3، غشت/أكتوبر 2006، ص 69.
[18] - عبد الرحمن التمارة، "من نقطة التحويل إلى دائرة المثاقفة"، ص 54.
[19]- Michel de coster, L'acculturation, revue diogène, N° 73, 1971, p28.
[20] - عبد الرحمن التمارة، "من نقطة التحويل إلى دائرة المثاقفة"، ص 56.

يمنعه جهله بلغة الأصل من تذوقها[21]

من هنا، كانت الترجمة مدعمة لفعل التواصل، الذي يعد أحد اللبنات الأساسية للمثاقفة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

2. . قناة التفاعل: عبر هذه القناة، يرتقي التواصل الثقافي إلى الاغتناء المتبادل، بحيث يغدو التفاعل الثقافي عبر الترجمة أداة لخلق علاقة التأثير والتأثر، والأخذ والعطاء بين ثقافتين متباينتين.[22]

3. قناة التنمية الأخلاقية: تنتمي الترجمة في الأصل إلى البعد الأخلاقي، لأن غايتها أخلاقية، فهي ترغب، عبر ماهيتها ذاتها في الاعتراف بالآخر كآخر وتقبله، وجعل الغريب منفتحا كغريب، على فضائه اللساني الخاص[23]. لذلك، تجنح الترجمة إلى تدعيم التواصل الأخلاقي مع الآخر وثقافته، متجاوزة نزعة التمركز حول الذات. وهو أمر يتماشى مع مفهوم المثاقفة التي تعمل على تنمية روح الثقة والتسامح بين الأفراد والجماعات، وإزالة بؤر التوتر والعداوة، التي غالبا ما يغذيها التقوقع والانعزال والجهل بالغير.[24]

يتضح جليا أن الترجمة تساهم في تنمية المثاقفة وتغذيتها، حيث تضطلع بدور الوسيط الفاعل المؤثر في التعارف والتعاون بين مختلف الجماعات البشرية، وتخصيب معارفها وتلاقحها. فعن طريقها تمكنت الأفكار من التحليق في عوالم جديدة وكتب لها البقاء والانتشار والنماء. وبها استطاعت الشعوب أن تواكب تطور المعرفة وتقف على عتبة الحداثة، وتحقق تقدمها ورفاهيتها. وبها عرفنا الآخر وأدركنا الذات، وأقمنا حوارا بناء ينهي التنازع ويؤسس سلاما يعم الجميع.

لكن جعل الترجمة أداة حقيقية لتنمية فعل المثاقفة رهين بتحمل مثقفي ومفكري كل أمة مسؤوليتهم في جعل الترجمة فعلا منتجا، بل فعلا قادرا على إنقاذ الفكر مما يحيط به من أخطار وخصوصا خطر الحنين الماضوي والاستلقاء في أكناف الآباء والأجداد، وخطر الاستلاب والضياع فيما هب ودب من نتف الثقافات المستوردة دون وعي أو هضم، ودون غربلة وانتقاء[25]. لكن ما هو السبيل إلى الحفاظ على الهوية الثقافية

[21] - أنطوان برمان، الترجمة والحرف أو مقام البعد، تر. عزالدين الخطابي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، ماي 2010، ص 96-97.

[22] - عبد الرحمن التمارة، "من نقطة التحويل إلى دائرة المثاقفة"، ص 56.

[23] - أنطوان برمان، الترجمة والحرف أو مقام البعد، ص 102-103.

[24] - عبد الرحمن التمارة، "من نقطة التحويل إلى دائرة المثاقفة"، ص 57.

[25] - المصطفى عمراني، "الترجمة بين المثاقفة والعولمة"، ص 26.

مع الانفتاح في الآن نفسه على مختلف الثقافات والتفاعل معها؟

لا نجد غضاضة في القول إن الكائن الحي السوي لابد أن ينفتح على الآخرين ويتثاقف معهم عبر جسور الاتصال لتحقيق التأثير والتأثر. فلا يستطيع أفراد أمة أن ينغلقوا على أنفسهم، ويتقوقعوا داخل ذاتهم، ويدعون القدرة على الاستمرار، لأن "الانغلاق والعزلة الحضارية لابد أن يؤديا إلى الذبول والاضمحلال الحضاري، تماما كما يحدث للجسم الذي يتغذى على ذاته، دون مدد من المحيط."[26] لذلك، كانت الأصولية الثقافية التي تحنط الآخر باعتباره غريبا وعدوا محتملا، تمتنع عن الترجمة الداعمة للانفتاح الثقافي على الغير، لتتعارض بذلك مع هذه السمة المكونة للحضارة البشرية والتنظيم الاجتماعي.

من هنا، كان الحديث عن الترجمة في عصر المثاقفة، يستدعي التخلص من "وهم الأصل" والإيمان بأن الترجمة " مجال لتحقيق الهوية المنفتحة على الآخر، من منطلق الخصوصية الغنية القائمة على التثاقف المتوازن."[27] فالترجمة لا تعد عملا ثقافيا في اتجاه واحد، ولا يحسن أن تكون كذلك، إنها أخذ وعطاء في آن واحد، لأن الأخذ وحده، إذا حصل يفيد التلقي، ويشير إلى حالة استهلاك لا يرافقه إنتاج، واكتساب لا يوازيه إكساب، وقد يورث تبعية تجافي الاستقلالية الفكرية والكرامة القومية، ويؤدي إلى إمحاء الذاتية الثقافية للأمة، بحيث تقع في التقليد الأعمى والببغائية الصماء، ويتضاءل فيها الأنا إزاء الغير. وهو ما حدث للأمة العربية الإسلامية، على عكس الدول الأوروبية التي فهمت العلاقة بين آلية الترجمة وعامل الهوية، ففرقت بين الترجمة الأدبية التي تدخل في إطار تقوية الوطنيات وغيرها بما يسمح بالفصل بين الأعمال البانية للهوية الوطنية وبين الوظائف التجارية ما بين الثقافات[28]. لهذا، كان الجمع بين الأصالة والحداثة، والترجمة أحد مسالكها، على أساس التكامل لا التفاضل، هو سبيل الاغتناء بما تقدمه المعرفة المترجمة، والطريق إلى معايشة العصر بأفكاره وإبداعه وعلومه وتقنياته، والمشاركة فيها. وأما الانبهار بقشور الثقافات الدخيلة، والانبتات عن ثقافة الأصل بما تحمله من قيم روحية وخلقية وفنية، فهو الاغتراب الذي يقطع الجذور، ويلغي خصوصيتها المميزة لها. من أجل هذا كله، ينبغي أن يوجه انتباه " الأصولية " ويصرف الجهد إلى تسيير حركة الترجمة

[26] - محمد عمارة، العطاء الحضاري للإسلام، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط. 1، 2004، ص 88.

[27] - رشيد برهون، "الترجمة ورهانات العولمة والمثاقفة"، ص 171.

[28] - جمال حضري، "الترجمة والمثاقفة"، مجلة حوليات التراث، ع 5 ،2006، ص 57.

في اتجاه الأخذ والعطاء، في ظل التعارف المتبادل على ثمرات الفكر الإنساني عوض الانكماش على الذات.[29]

لهذا، فمتأمل تاريخ الترجمة بإمكانه أن يقف على نماذج عديدة للمثاقفة بناء على فعل الترجمة، في مجالات كثيرة وواسعة يصعب حصرها. وهي تشمل أكثر القطاعات حساسية في حياة البشر، فمنها المثاقفة الأدبية التي يسعى أثرها إلى تعميم القيم الإنسانية وإعلاء صوت الحرية، فبانتشاره في لغته الأصلية يرفع مواطنيه إلى مصاف هذه القيم ويجعلها رائدهم، وبانتشاره مترجما يهيب بأبناء الإنسانية أن يرتقوا هذا الارتقاء وأن يرودوا هذه الريادة. ومنها أيضا، المثاقفة العلمية، التي تمدنا بالوسائل النظرية والعلمية للدفاع عن الإنسانية وقيمها وحريتها. ونحن نعيش ثورة علمية حازت قصب السبق فيها مجتمعات دون أخرى، يكتب علماؤها بلغاتهم القومية، مما جعل أمر متابعة الأبحاث العلمية صعبا إن لم يتسلح العالم بعدد من اللغات الأجنبية تسهل عليه مواكبة المباحث العلمية في مصادرها الأصلية. من هنا، يتبين دور الترجمة في المثاقفة العلمية، سمة العالم المعاصر. لكن المثاقفة الأدبية قد تكون دعائية مضللة، وتكون العلمية منها من أجل الشر، من هنا تطفو المثاقفة الفكرية إلى السطح كرقيب عليهما، سواء من حيث الكتابة أو من حيث الترجمة. والحقيقة التاريخية تشهد أن الحروب أظهرت أن الدول تلجأ إلى الدعاوى المضللة والأسلحة الفتاكة، في سبيل تحقيق النصر، مستخدمة في ذلك الأدباء والعلماء، فارتفعت بسبب ذلك أصوات المفكرين تبين زيف الدعاوى المضللة والأخطار المحدقة بالبشرية، وداعية إلى مراقبة العلم والأدب وتوجيههما نحو الخير. بيد أن الفكر قد يقف عند الحلول الجزئية، التي تكون بداية مشكلات جديدة، من هنا، كانت الحاجة إلى مثاقفة فلسفية تربط الحلول الجزئية فيما بينها، بل تراها من خلالها في ترابطها وتكاملها .[30]

ولنا في التراث الإنساني شواهد مهمة لأشكال التلاقح الثقافي والحوار الحضاري بين الأمم، رغم التباينات العرقية والدينية واللغوية والمعرفية. حيث لعبت الترجمة في هذا التقارب الثقافي والحضاري دورا طلائعيا في إغناء وإثراء هذه الحضارات بما تختزنه سابقتها من خبرة وتقدم في مجالات وحقول معرفية وفكرية وثقافية مهمة[31]. وهذا ما سنحاول إبرازه.

[29] - شحادة الخوري، الترجمة والثقافة، مجلة التعريب، ع 10، دجنبر 1995، ص 71.

[30] - تيسير شيخ الأرض، "الترجمة بين الفعل والانفعال الثقافي"، ص13-18.

[31] - هاشم صالح، "دور الترجمة في تشكيل الفكر العربي المعاصر"، مجلة الوحدة، ع 62/61، أكتوبر/نونبر 1989،

دور الترجمة في التفاعل الثقافي:

إن نقطة الارتكاز في الحوار هي المعرفة، لأن الإنسان صديق لمن يعرف وعدو لمن يجهل؛ لذلك كانت الحاجة أكثر إلى معرفة متبادلة بين الذات والغير، معرفة متحررة من الرواسب القديمة والنظرات الخاطئة والآراء القبلية والأطماع الأنانية. لقد صدق من قال إن الزيارات واللقاءات المتبادلة في المؤتمرات والملتقيات والندوات، وتبادل الأساتذة والفنيين والطلاب بين الجامعات، والتعاون الصناعي والتبادل التجاري والسياحة، ونشر البحوث المفيدة لطرف لدى الطرف الآخر، ووضع الدراسات الجادة عن الثقافات والحضارات في الشرق والغرب، كلها طرائق ممكنة ونافعة في تفعيل الحوار الثقافي بين مختلف الشعوب. بيد أن للترجمة دورا أساسيا في خلق التواصل وتنشيط الحوار البناء بين الأنا والآخر[32]. وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فالترجمة ليست نشاطا ثانويا يقتصر دورها على نقل نص من لغة إلى أخرى، أو ككتابة بتوقيع الآخر، مقابل عملية الخلق الأولى، وإنما تعتبر مصدرا هاما في عملية التواصل خاصة في نماذجها العالية القيمة[33] . فهي تعبر عن أبعاد حضارية قابلة للتعميم والانتشار، نمت في إطار علاقات متبادلة بين شعوب حية، ذات إبداع خالد في مختلف مجالات الفكر والثقافة والفن والعلوم. فكانت بذلك حقا، صلة الوصل الأكثر فاعلية في التفاعل الثقافي بين الشعوب[34]. ويبرز دورها في تحقيق هذا التواصل الثقافي على نحو خاص حين لا يكون هناك تماس مباشر بين شعبين أو أمتين، حيث تقوم الترجمة بسد هذه الثغرة سدا مباشرا[35]. غير أن انخراط الترجمة في تفعيل الحوار الثقافي ليس وليد التاريخ المعاصر، بل هي فعل واكب سيرورات الأمم والحضارات منذ عصور قديمة، إذ اضطلعت الترجمة بدور طليعي في التبادل الثقافي ونقل المعرفة بين الأمم، بوصفها أداة اتصال بين الجماعات الناطقة بلغات مختلفة، وقناة تواصل تمر عبرها الأفكار والمعتقدات والابتكارات والاختراعات. إلا أن التحولات الحضارية التي يشهدها العالم المعاصر، بسبب التطورات التكنولوجية والمعلوماتية، فرضت الحوار الثقافي/ المثاقفة أكثر من أي وقت مضى، كما فرضت الترجمة كنشاط معرفي مواكب لها، لتغدو بذلك

ص 25.

[32] - شحادة الخوري، "الترجمة جسر التواصل بين الثقافات والحضارات"، مجلة التعريب، ع 34، يونيو 2008، ص 81.

[33] - مسعود ضاهر، "الاتجاهات الأساسية لحركة الترجمة في لبنان والوطن العربي"، مجلة الوحدة، ع 62/61، أكتوبر/نونبر 1989، ص 45-46.

[34] - علي القاسمي، الترجمة وأدواتها: دراسات في النظرية والتصنيف، ص 67.

[35] - عبد الكريم ناصيف، الترجمة: أهميتها ودورها في تطوير الأجناس الأدبية، ص61.

الترجمة أداة مغذية للدينامية الحوارية بين شعوب العالم[36].

لا شك أن الترجمة كانت ولازالت بمثابة الجسر الذي تعبر من خلاله الثقافات إلى باقي المجتمعات من حولها دون أي جواز، فهي تلعب دورا كبيرا في خلق الحوار بين بني البشر، يؤكد تفاعلهم وتكاملهم في مسيرة الحياة الإنسانية، وفي تعاملهم مع البيئة الطبيعية والاجتماعية، تفاعلا وتعاونا، تأثيرا وتأثرا[37]. ولم يحل اختلاف الألسنة في عصر من العصور حاجزا دون انتشار مظاهر الحضارة من مكان إلى آخر، لأن الإنسان تواق على مر العصور إلى المثاقفة والتواصل مع غيره، بدافع فطرته، طلبا لأسباب العيش والتماس العون، فكانت الترجمة دائما هي الوسيط الأبرز الذي يعينه على التقارب والتواصل، في أيام السلام كما في أيام الخصام على السواء، إذ تصبح الترجمة آنئذ وسيلة لجلب الوئام ودعمه، وإحلال التفاهم بين الجماعات المختلفة لسانا وثقافة.[38]

وتعلمنا دروس التاريخ أن الترجمة وسيلة أساسية في التفاعل الثقافي مع الغير واكتساب المعرفة منه. فبقراءة أحداث التاريخ بروية وموضوعية، نجد وقائع عديدة تظهر أن الثقافات والحضارات تواصلت وتقارضت وتبادلت وتكاملت فيما بينها على الرغم من بعد المسافات وضعف وسائل الاتصال والفروق اللغوية والدينية والإيديولوجية[39]. فعندما سيطر البابليون بقيادة ملكهم حمورابي على بلاد سومر، وجدوا أن للسومريين ثقافة تفوق ما لديهم بكثير، فالسومريون هم الذين أبدعوا الكتابة المسمارية، واخترعوا العجلة، وابتكروا المحراث، وقسموا الزمن إلى وحدات، وسنوا القوانين والتشريعات... فراح البابليون يعلمون أولادهم العلوم السومرية بتحرير قوائم بالرموز السومرية ومقابلاتها البابلية كأداة من أدوات الترجمة، حتى تساعدهم على استيعابها بلغتها السومرية[40]. كما يسجل التاريخ القديم لبلاد ما بين النهرين قيام الملك حمورابي بنقش تشريعه القانوني باستعمال اللغتين الأكادية والحورية[41]. وفي الحقبة السومرية الأكادية، انتقلت

[36] - عبد الرحمن التمارة، "من نقطة التحويل إلى دائرة المثاقفة"، ص 55.
[37] - شحادة الخوري، "الترجمة جسر التواصل بين الثقافات والحضارات"، ص 73.
[38] - عبد الله الشناق، "الترجمة ودورها في التلاقح الثقافي"، مجلة الترجمان مج 9، ع 1، أبريل 2000، ص14-15.
[39] - عبد الكريم ناصيف، الترجمة: أهميتها ودورها في تطوير الأجناس الأدبية، ص 57.
[40] - علي القاسمي، الترجمة وأدواتها: دراسات في النظرية والتصنيف، ص 15.
[41] -حسن بحراوي، شعرية الترجمة: من التاريخ إلى النظرية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط.1، 2010، ص 18.

عبرالترجمة الملحمة البابلية "غلغامش" ذات الأصل السومري إلى اللغتين الحورية والحثية[42]. وعثر المؤرخون والباحثون على وثائق وتسجيلات ونقوش تثبت أن قدماء مصر استعملوا التراجمة في بلاطاتهم لتحرير النصوص الإدارية والمعاهدات السياسية التي كانوا يعقدونها مع جيرانهم الحثيين والسومريين، حيث وجدت ستمائة لوحة من الخزف المحروق في تل العمارنة بمدينة المنيا في البقعة التي تضم مدينة "آخت آتون" وهي مكتوبة باللغة الأكادية وبالخط المسماري وجاءت لمصر من بابل وجزر اليونان[43]. وبعد فتوح الاسكندر المقدوني أصبحت اليونانية لغة العالم المتحضر ولغة التأليف في العلم والأدب. وقد أعطى هذا الشعب النابه آثارا فكرية باهرة أثرت المعرفة البشرية، وزادتها عمقا واتساعا على مدى الأجيال، مستفيدا مما حصلت عليه الشعوب الأخرى التي كانت تسكن مصر وفينيقية وبلاد الشام من معلومات وتجارب ومما أبدعت من آداب وعلوم[44]. وهذا ما أكده "جورج سارتون" George Sarton)) في كتابه تاريخ العلم والإنسية الجديدة بأن الثقافة اليونانية لها أب وأم شرعيان، أما أبوها فهو تراث مصر القديمة، وأما أمها فهي بلاد ما بين النهرين والشرق القديم مهد الحضارات، والمعلم الأول للبشرية في المجالين المدنية المادية والعلوم كلها، وفي المجال الروحي والمعتقدات الدينية[45]. غير أن اليونانيين لم يشغلوا أنفسهم بالترجمة، لعظمة ثقافتهم وهيمنة لغتهم، لكن ترتب عن ذلك العديد من الترجمات إلى اللغة اليونانية كترجمة كتاب تاريخ مصر الذي يصور أحداث الزمن القديم ويصف عادات السكان وعقيدتهم، والتي قام بها الكاهن مانيطون بطلب من بطليموس الأول[46]. وعندما تغلب الرومان على اليونان واستولوا على بلادهم تأثروا بثقافتهم، بل تكلم أكثر رجال الفكر والأدب والثقافة اللغة اليونانية إلى جانب لغتهم اللاتينية[47]، فتنوع النشاط الترجمي خلال هذه الحقبة، واتخذ أشكالا مختلفة، تذهب من الترجمة الفورية المستعملة لأهداف عسكرية وسياسية إلى ترجمة النصوص المقدسة لأغراض دينية تعبدية. وخلال هذه المرحلة ظهرت أولى الترجمات الموقعة باسم "ليفيوس أندرونيكوس" (Livius Andronicus) الذي ترجم الأوديسة إلى

[42] - المرجع نفسه، ص 9.
[43] - سعيدة كحيل، تعليمية الترجمة: دراسة تحليلية تطبيقية، دار الكتب الحديث أربد، الأردن، ط. 1، 2009، ص 26.
[44] - شحادة الخوري، الترجمة قديما وحديثا، ص 23.
[45] - جورج سارتون، تاريخ العلم والإنسية الجديدة، تر. اسماعيل مظهر، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، ماي 1961، ص 148-189.
[46] - حسن بحراوي، شعرية الترجمة: من التاريخ إلى النظرية، ص 23.
[47] - شحادة الخوري، الترجمة قديما وحديثا، ص 23.

اللغة اللاتينية، كما ترجم العديد من التراجيديات والكوميديات الإغريقية.[48]

لا شك أن نتاج الشعوب والحضارات قد انتقل من حضارة إلى أخرى عن طريق الترجمة بشكل رئيس ومن طريق الاقتباس والتناقل والتداول، فألبست الشعوب النتاج المقترض حلة محلية وطبعته بطابعها الخاص. غير أن كل هذه المحاولات الرائدة في الميدان لم تكن لتطلق حركة نشيطة للترجمة بالمعنى الأدواتي للكلمة، وإنما كان لها الفضل المحدود في بلورة فعل المثاقفة بين شتى الأمم والتقريب فيما بينها[49]. ولذا يمكن القول إن أول حركة واسعة ومنظمة للترجمة العلمية والثقافية، بين الأمم، إنما هي الحركة التي بادر المسلمون إلى القيام بها في عهد الدولة الأموية، ثم تتابعت بقوة أكبر في العصر العباسي، بعدما تنبهوا إلى دور الترجمة وأهميتها في نقل معارف السابقين والإفادة منها، بعقول متفتحة بلا خلفيات تعوقهم، لاطمئنانهم إلى قوتهم العسكرية ومعتقداتهم الإيمانية، فكان "من نتائج هذه العقلية المتعطشة للمعرفة عند المسلمين أن أصبحوا بالفعل المؤسسين الحقيقيين لمفهوم العالمية في المعرفة أو وحدة المعرفة الإنسانية."[50] وتميزت هذه الحركة بتعدد مصادرها، حيث ترجم المسلمون عن الهندية والفارسية والسريانية والنبطية، ولكن المصدر الرئيسي الذي ترجموا منه واغترفوا من معينه هو المؤلفات اليونانية[51]. وحسبنا في هذا المجال أن نتوقف عند أسماء عرفت بالعلم والبحث والترجمة، فتوحي إلينا بما قدمت إلى المعرفة الإنسانية من إضافات جليلة، كالكندي وابن يونس والبيروني وابن الهيثم في الفيزياء والبصريات، وجابر بن حيان في الكيمياء، والخوارزمي والكاشي والطوسي في الرياضيات، وبني موسى بن شاكر في الفلك وابن البيطار في الزراعة، والرازي وابن سينا وابن النفيس في الطب وياقوت وأبي الفداء والإدريسي في الجغرافيا، وغيرهم كثير[52]. وكان من أشهر من ترجمت كتبهم أرسطو وأفلاطون وبطليموس وأبوقراط وجالينوس... إذ بزغ اسم حنين بن إسحاق الذي ترجم كتب الطب عن جالينوس، وعنى بترجمة كتب الحكمة والفلسفة لأرسطو وأقليدس وبطليموس، وكذلك ثابت بن قرة الذي

[48] - حسن بحراوي، شعرية الترجمة: من التاريخ إلى النظرية، ص 24-25.

[49] - علي درويش، "الترجمة بين الاستعلاء الثقافي والاستلاب الحضاري"، مجلة ترجميات، ع. 1، فبراير 2006، ص 13.

[50] - ج.ج كراوثر، قصة العلم، تر. يمنى طريف الخوري وعبد الفتاح بدوي، المجلس الأعلى للثقافة السلسلة: للترجمة، القاهرة، ط. 1، 1998 ص 57.

[51] - شحادة الخوري، الترجمة قديما وحديثا، ص 24.

[52] - شحاد الخوري، "الترجمة والثقافة"، ص 67. انظر كذلك، ول ديورانت، قصة الحضارة: عصر الإيمان، مج. 4، تر. محمد بدران، دار الجيل، بيروت.

ترجم كتاب الأصول لأقليدس، وغيرهما. وقد تميزت أغلب ترجماتهم بالإبداعية، لأنهم كانوا أعرف بالموضوعات التي ترجموها.[53]

وعرفت الحضارة الإسلامية مثاقفة واسعة بين الثقافة العربية الاسلامية والثقافة الفارسية. فالفرس كما هو معلوم، أصحاب ملك قديم وحضارة عريقة، ومعرفة بالعلوم، فهم ورثوا الأشوريين والبابليين في الرياضيات والطبيعيات، ونقلوا إلى لغتهم كثيرا من علوم الهنود، ونقلوا من اليونان علوما شتى. ولما اتصل بهم العرب، ترجموا إلى اللغة العربية كتبا عديدة في العلوم والتاريخ والسير والأخلاق ونظام الحكم... ومن أشهر المترجمين أبي سهل بن نوبخت وابنه الفضل الذي نقل كتبا في النجوم وغيرها، وعلي بن زياد التميمي الذي نقل كتاب "زيج الشهريار"، وإسحاق بن يزيد مترجم سيرة الفرس المعروفة بأخبار نامه، وأبان بن عبد الحميد الذي نقل كتاب "سيرة أردشير". وفي مجال القصص، ترجموا الكثير، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، قصة رستم واسفنديار التي ترجمها جبلة بن سالم و"هزار أفسانه" -ألف خرافة -وكتاب "خرافة ونزهة" وكتاب "الدب والثعلب" وكتاب "نمرود" وغيرها. ولعل عبد الله بن المقفع كان أبرزهم بترجماته الكثيرة ذي الموضوعات المتنوعة، حيث ترجم كتاب التاج في سيرة كسرى أنوشروان، وكتاب تاريخ الفرس من مبدأ ملكهم إلى نهايته المعروف "بخداينامه"، وكتاب نظم الفرس وعاداتهم "آيين نامه". ومما ترجم كذلك في الأخلاق والسلوك والقصص، كتاب "الأدب الكبير" وكتاب "الأدب الصغير"، وكتاب "كليلة ودمنة"...[54] وبذلك، فالفرس عندما خالطوا العرب أغنوا ثقافتهم بمئات المؤلفات في شتى العلوم، وأضافوا إلى لغتهم الكثيرا من المفردات، وزادوا على أدبهم بعض الموضوعات، وولدوا طرائف من المعاني والخيال، ونقلوا إلى الإدارة والسياسة بعض النظم الجديدة. وبالمثل أثرت الثقافة العربية الاسلامية في الثقافة الفارسية، حيث زودتها بما يحمل الاسلام من خير إلى القلوب والعقول، وبما يكفل من سمو في الأخلاق ونظم الاجتماع، وأغنت لغتها بكلمات كثيرة جدا من العربية، وبجمل وعبارات كاملة، ومدت نثرها الفني بألوان ظهرت فيما كتب في التاريخ والقصة والمقامة، وهدتها إلى اقتباس أوزان الشعر العربي وقوافيه ومصطلحاته العروضية، وكذلك زودتها بالحروف العربية التي كتب بها الفرس لغتهم ومازالوا يكتبون[55]. وإلى جانب

[53] - سعيدة كحيل، تعليمية الترجمة: دراسة تحليلية تطبيقية، ص 28-29.

[54] - أحمد محمد الحوفي، تيارات ثقافية بين العرب والفرس، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط. 3، 1978، ص 182-196.

[55] - المرجع نفسه، ص 305-306.

التثاقف العربي الفارسي الذي كان قويا وعميقا، كان هناك تثاقف عربي هندي، حيث أخذ العرب عن الهنود الرياضيات وبعض أساسيات علم الفلك وما ألف في ميدان الطب، خاصة بعد ترجمة كتاب "السدهانات" الذي كلف به إبراهيم بن حبيب الفزاري بأمر من الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور[56]، وهي أكبر موسوعة هندية في الحساب والفلك والتنجيم، من وضع "براهما جويت"، تتألف من جزأين: أحدهما عن سير الكواكب التي نستخرج منها جداول التقاويم، والآخر عن الوسائل الحسابية لهذه الجداول التي فتحت أمام العرب آفاق الحساب وحساب المثلثات[57]. وكذلك أخذوا عنهم كتابا ثانيا اسمه "الأركند" وثالثا اسمه "الأرجبهر".[58]

وبذلك يتبين لنا أن الترجمة التي شغلت الثقافة العربية الإسلامية بكل مكوناتها، السياسية المتمثلة بالخلفاء والفردية المتمثلة بكبار الأعلام، تشير بوضوح إلى طبيعة الروح التي سادت تلك الثقافة، روح التفاعل مع الآخرين وروح التلاقح معهم[59]. وفي هذا السياق، يشير الدكتور طه حسين إلى أن "هذه الثقافات جميعها مهما تكن حظوظها في التأثير قد التقت واجتمعت في الثقافة الإسلامية، فقد هضمها العرب واستوعبوها واستقلت في العصر العباسي وأصبحت بعيدة عن أصولها القديمة بعدا شاسعا، بحيث يمكن أن يقال إنها ثقافة إسلامية خالصة".[60]

ومن بين الوقائع التاريخية أيضا، التي تثبت أن للترجمة دورا مهما في التلاقح الثقافي، تلك الحركة التي قام بها الأوروبيون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من نقل لعلوم العرب ومعارفهم إلى لغاتهم، ترجمت فيها آلاف المؤلفات في الفلسفة والعلوم والآداب، فكانت سببا رئيسيا في انبعاث نهضتهم الفكرية.[61]

وبعد غفوة طويلة، استيقظ العرب في مطلع القرن التاسع عشر، فاصطدموا بالآخر، المتفوق والمتقدم في شتى المجالات، وتنبهوا إلى أن العلم مصدر القوة، وأن الجهل سبب الضعف، فقر في أذهانهم أن يستأنفوا المسير في طريق التقدم العلمي، المقترن بالضرورة بترجمة المعارف الإنسانية

---

[56] - حسن بحراوي، شعرية الترجمة: من التاريخ إلى النظرية، ص 35.

[57] - يمنى طريف الخولي،" فلسفة العلم في القرن العشرين"، سلسلة عالم المعرفة، ع. 264، دجنبر 2000، ص 42-43.

[58] - أورنك زيب الأعظمي، حركة الترجمة في العصر العباسي، دار الحرف العربي، بيروت-لبنان، ط. 1، 2005، ص 30.

[59] - عبد الحكيم أجهر، "الترجمة بوصفها تأويلا ومثاقفة"، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، مج3، ع1، 2006، ص 178.

[60] - طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط.1، 1991، ج 2. ص 38.

[61] - علي القاسمي، "أثر الترجمة في معرفة الآخر وإدراك الذات"، ص 88.

والعلم خاصة. عندئذ نشأت حركة ترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، وشملت هذه الحركة العلوم والمعارف بأنواعها المختلفة[62]. وكان من رواد المترجمين محمد علي البقلي، ومحمد الشافعي، وعلي رياض، ومحمد الدري، وكلهم جمعوا بين الترجمة والتأليف. وكان رائدهم رفاعة رافع الطهطاوي، الذي ترك أثرا بينا في النهضة الفكرية العربية، خاصة في الترجمة الأدبية، حيث كان الأول في ترجمة الشعر الفرنسي إلى العربية عندما ترجم الديوان " La lyse brisée" بـ"نظم العقيق في كسر العود". ثم ترجم كتاب "Télémaque" للأديب الفرنسي فينلون (Fénelon) تحت عنوان " مواقع الأفلاك في وقائع تلماك"، وكتابه (Traité de l'éducation des filles) المترجم ب "رسالة في تربية البنات".[63]

يتضح من خلال هذه الوقائع التاريخية التي ذكرنا، أن عملية التواصل الثقافي، التي تشكل الترجمة عمودها الفقري، كفيلة بأن تلغي التباينات الشديدة، وتغني الثقافات، وتخلق النموذج العام الذي يعمل الناس على احتذائه. وهكذا يحمل ثوار كوبا الأفكار نفسها التي يحملها ثوار الصين، ويقرأ الناس في المغرب "فولتير" و"جان جاك روسو" بقدر ما يقرأه ابن مارسيليا أو استراسبورغ. كما يعرف العالم كله "البخيل" لموليير، و"الأبله" لدستويفسكي، و"هاملت" لشكسبير، و"دونكيشوت" لسرفانتس. إنها نماذج عالمية قامت الترجمة بتقديمها للبشرية، وتركت أثرا بارزا عند عامة الناس في كل مكان.[64]

من هنا، كان للترجمة دور بارز في مد الجسور بين الثقافات المختلفة، وتقريب البعيد وكشف الغامض، مساهمة في نقل المعرفة وخلق الحوار والتواصل بين الثقافات والمجتمعات على اختلاف انتماءاتها وتصوراتها وقناعاتها وأعرافها وتقاليدها. وبذلك، انخرطت الترجمة، في تحقيق رهانات متعددة، يمكن الاقتراب منها كما يلي:

تنمي الترجمة جسور التواصل بين الثقافات، إن على مستوى المضمون أو على مستوى الشكل مع إضفاء طابع الخصوصية على المواد المترجمة قصد تأصيلها في بيئتها الثقافية الجديدة.

تخلق الترجمة لقاءات الاتفاق والتوافق حول قضايا وأفكار مختلفة ومتنوعة في مرجعيتين ثقافيتين، باعتبارها محرضا ثقافيا يفعل فعل الخميرة في التفاعلات الكيماوية، إذ تقدم الأرضية المناسبة التي يمكن للمبدع والباحث أن يقف عليها ومن ثم ينطلق إلى عوالم جديدة يبدع فيها ويبتكر ويخترع.

[62] - إبراهيم ألحيان، إبراهيم ألحيان، "الترجمة والتفاعل الثقافي"، مجلة ترجميات، السنة الأولى، ع1، فبراير2006،ص 112.

[63] - روناك حسني ودانيال نيومان، "الترجمة الثقافية في عصر النهضة"، ص7375.

[64] - عبد الكريم ناصيف، الترجمة: أهميتها ودورها في تطوير الأجناس الأدبية، ص:61.

تفعل الترجمة الخطاب الأدبي، وتدفعه صوب التجدد والتطور . خاصة آداب الثقافة المترجم لها . مما يساهم في إثراء النصوص الأدبية (نقد، شعر، رواية...) من حيث مكوناتها الجمالية الفنية خاصة. كما هو شأن "ألف ليلة وليلة" بعدما ترجمت إلى اللغات الأجنبية، حيث أمدت أدباء العالم الغربي بزاد وافر من الرموز والأفكار والصور وصيغ السرد، وجهزت رواياتهم بأساليبها وتأملاتها الفلسفية، وقدمت للمسرح لقطات رائعة ومشاهد فاتنة وشخصيات نموذجية تعبر عن آمال البشرية وآلامها.

تمكن الترجمة المجتمعات الإنسانية من مواكبة الحركة الثقافية والفكرية في العالم، ومن ثم تجسير الهوة القائمة بين الشعوب الأرفع حضارة والشعوب الأدنى حضارة.

تساهم الترجمة في التعرف على الآخر في ثقافته وبيئته وشروط وجوده، فضلا عن تعميق المعرفة بالأنا، سواء بلغته أم ثقافته أم نمط حياته الفكرية والمعيشية.

تنمي الترجمة روح الإخاء والتعاون الإنساني/المجتمعي، وتكرس فلسفة حقوق الإنسان في بعدها الشمولي. وذلك انطلاقا من احترام ثقافة "الآخر"، وتجاوز الأحكام المسبقة المليئة بنزعة الاحتقار والتعالي عن ثقافة الغير، والتباهي بثقافة الأنا.

تعد الترجمة وسيلة أساسية للتعريف بالعلوم والتكنولوجيا ونقلها وتوطينها، وأداة لامعة لإغناء اللغة وتطويرها وعصرنتها.

ولا يمكن للترجمة أن تكون فعلا ثقافيا مثمرا، وحركة مثاقفة خصبة وبناءة ما لم تكن قائمة على الأخذ والعطاء، رامية إلى تطوير جوانب المجتمع وأشكال ثقافته. أما إذا تمت في ظل التبعية وفي مجتمع يعيش على هامش التاريخ، يترجم ما يفرض عليه لا ما يريده هو، فإنها ستعمل على قذفه داخل تاريخ الثقافة المترجم عنها. وهنا يكمن الفرق الجوهري بين الترجمة التي تفضي إلى المثاقفة وتغني الطرفين بأحسن ما يملكان من تراث، وبين الترجمة التي تكرس الغزو الفكري وتعطي الأولوية للثقافة الوافدة على حساب الثقافة الأصلية.

لكن ينبغي التنبيه إلى أن قدرة الترجمة على تحقيق التفاعل الثقافي المنشود يتوقف على كميتها ونوعيتها وانتقائيتها وغائيتها، وعلى رغبة المجتمع في الانفتاح على الآخر، والإفادة منه، وإرادة قياداته في التغيير والتطوير.

لائحة المراجع:

- تيسير شيخ الأرض، "الترجمة بين الفعل والانفعال الثقافي"، مجلة الوحدة، ع. 61-62، أكتوبر/نونبر1989.

Michel de coster, **L'acculturation**, revue diogène, N° 73, 1971, p28.

إبراهيم ألحيان، إبراهيم ألحيان، "الترجمة والتفاعل الثقافي"، مجلة ترجميات، السنة الأولى، ع1، فبراير2006.

أحمد محمد الحوفي، تيارات ثقافية بين العرب والفرس، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط. 3، 1978.

أنطوان برمان، الترجمة والحرف أو مقام البعد، تر. عزالدين الخطابي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت،

ج.ج كراوثر، قصة العلم، تر. يمنى طريف الخوري وعبد الفتاح بدوي، المجلس الأعلى للثقافة السلسلة: المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط. 1، 1998.

جمال حضري، "الترجمة والمثاقفة"، مجلة حوليات التراث، ع 5 ،2006.

جورج سارتون، تاريخ العلم والإنسية الجديدة، تر. اسماعيل مظهر، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، ماي 1961.

جيرار لكلرك، الأنثروبولوجيا والاستعمار، تر. جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 1990.

حسن بحراوي، شعرية الترجمة: من التاريخ إلى النظرية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط.1، 2010.

حسن عزوزي، الإسلام والحضارة الغربية المعاصرة، ط.1، 2003، أنفوبرانت، فاس، المغرب.

رشيد برهون، "الترجمة ورهانات العولمة والمثاقفة"، عالم الفكر، ع.1، يوليوز-شتنبر2002.

روناك حسني ودانيال نيومان، "الترجمة الثقافية في عصر النهضة" .

سعيدة كحيل، تعليمية الترجمة: دراسة تحليلية تطبيقية، دار الكتب الحديث أربد، الأردن، ط. 1، 2009.

شحادة الخوري، "الترجمة جسر التواصل بين الثقافات والحضارات"، مجلة التعريب، ع 34، يونيو 2008،

شحادة الخوري، الترجمة قديما وحديثا، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، الطبعة الأولى، 1986.

شحادة الخوري، الترجمة قديما وحديثا، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، الطبعة الأولى ، 1986.

شحادة الخوري، الترجمة والثقافة، مجلة التعريب، ع 10، دجنبر 1995.

ط 1، ماي 2010.

طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط.1، 1991، ج 2.

طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع.36، يناير 2002.

عبد الحكيم أجهر،"الترجمة بوصفها تأويلا ومثاقفة"، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، مج3، ع1، 2006.

عبد الرحمن التمارة، "من نقطة التحويل إلى دائرة المثاقفة"، مجلة فكر ونقد، ع86، 2007.

عبد الرحمن التمارة، "من نقطة التحويل إلى دائرة المثاقفة"، مجلة فكر ونقد، ع86، 2007.

عبد الرحيم حزل، "أسئلة الترجمة"، سلسلة شراع، ع 55، ماي 1999.

عبد الرحيم حزل، "الترجمة والأدلوجة في حوار/صراع المشرق والمغرب"، ترجميات، ع.3، غشت/أكتوبر 2006.

عبد الكريم ناصيف، الترجمة:أهميتها ودورها في تطوير الأجناس الأدبية، مجلة الوحدة، ع62/61، أكتوبر/نونبر1989.

علي القاسمي، الترجمة وأدواتها: دراسات في النظرية والتصنيف، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط.1، 2009، ص 67.

علي القاسمي،"أثر الترجمة في معرفة الآخر وإدراك الذات"، مجلة ترجميات، س1، ع. 2، ماي/يوليوز 2006.

علي درويش، "الترجمة بين الاستعلاء الثقافي والاستلاب الحضاري"، مجلة ترجميات، ع 1، فبراير 2006.

محمد عمارة، العطاء الحضاري للإسلام، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط. 1، 2004.

مسعود ضاهر، "الاتجاهات الأساسية لحركة الترجمة في لبنان والوطن العربي"، مجلة الوحدة، ع 62/61، أكتوبر/نونبر 1989.

المصطفى عمراني، "الترجمة بين المثاقفة والعولمة"، مجلة فكر ونقد، ع 95، فبراير 2008.

هاشم صالح، "دور الترجمة في تشكيل الفكر العربي المعاصر"، مجلة الوحدة، ع 62/61، أكتوبر/نونبر 1989.

ورنك زيب الأعظمي، حركة الترجمة في العصر العباسي، دار الحرف العربي، بيروت-لبنان، ط. 1، 2005.

ول ديورانت، قصة الحضارة: عصر الإيمان، مج. 4، تر. محمد بدران، دار الجيل، بيروت.

يمنى طريف الخولي،" فلسفة العلم في القرن العشرين"، سلسلة عالم المعرفة، ع. 264، دجنبر 2000.